



تعتبر ظاهرة العبودية الطوعية من مشاغل الفلسفة السياسية وعلم النفس والسوسيولوجيا واللسانيات الاجتماعية، من حيث رصد لغة العبد الطائع باختباره وكذا تمثلاته الذهنية والنفسية ونسقه الإدراكي والسلوكي. والعبودية الطوعية، هي اختيار الإنسان من تلقاء ذاته أن يكون عبدا للطاغية/القائد، مستمتعا بطاعته، سواء كان في الحكم، أو في الحزب والتنظيم، أو في أي مجال من مجالات الحياة التي تمارس فيها سلطة ما.

وقد تناول هذا المفهوم بالدراسة فلاسفة ومفكرون من مختلف المشارب والاتجاهات الفكرية والسياسية. وبرز في دراسة الموضوع الفيلسوف الفرنسي الشاب (إثيان دولابويسيه) Etienne de la Boethie في كتابه (مقال في العبودية الطوعية)، Discours de la servitude volontaire؛ وهو كتاب أسس لفكرة الحرية كمنطلق مركزي، في الفكر السياسي الغربي الحديث، مما انطلق منه الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط في مقالته الشهيرة (ما هي الأنوار؟).

فالطاغية، في نظر "لا بويسيه"، لا يحقق انتصارا على الجمهور بالقوة، وإنما عبر اتخاذ القرار بمحض إرادتهم؛ إذ هم من يتطوع لخدمته، من خلال قدرته على سلب ألبابهم، وملء خيالهم، حتى يتماهون معه، متوهمين أنهم يشاركونه سلطانه.

لذلك، طرح "دي لا بويسيه" إشكالا فلسفيا وفكريا وسياسيا عميقا عندما قال: "كل ما أرغب فيه الآن هو أن تفهموني كيف يمكن لهذه الكثرة من الناس والمدن والأوطان أن تتحمل أحيانا كل شيء من طاغية واحد، وهو لا يملك من القوة إلا ما يعطى، ولا من سلطان للإضرار بهم إلا قدر ما يريدون الصبر عليه، وما كان يستطيع أن يلحق بهم أي أذى لولا أنهم يؤثرون احتمال كل شيء منه على أن يعارضوه في أي شيء؟

إنه لأمر عجيب [..] أن نرى آلافا مؤلفة من الناس يستعبدون سوء استعباد، رازحين تحت النير، لا لأنهم قهروا بقوة عظمى، ولكنهم لأنهم افتتنوا أو قل سحروا بالاسم وحده لواحد كان ينبغي أن لا يخشوه، ما دام وحده، ولا أن يحبوه ما دام فظا غليظ القلب على الجميع، فنجدهم يهبون لخدمته والدفاع عنه، بل والتماهي معه، حتى إنهم يتوهمون، وهم في أوج استسخاره لهم،

يشعرون بمشاركته أفكاره وسلطته عليهم، لذلك يتشددون في التزام طاعته التي ورثها ويورثوها لمن حولهم، بما يغذي الخيال الجمعي عبر التاريخ للطائعين والمريدين.

وإذا كان "دي لا بويسي" يرى أن حقيقة التعبد الطوعي هي أنه تسيد خفي ناتج عن افتتان بالطاغية، فإن الفيلسوف طه عبد الرحمن يستدرك عليه بأن الافتتان لا يتأتى تلقائياً من التعبد الطوعي، كما يأتي منه تعبده، بل تحمله على ذلك أفعال الطاغية وكذا تصرفاته وإمعانه فيه (كتاب روح الدين، ص99).

لذلك صاغ طه عبد الرحمن دعوى (لابويسي) في العبودية الطوعية، بصيغة أخرى هي: "إن المتعبد الطوعي متعبد في الظاهر متسيد في الباطن، أطغاه المتسيد في الظاهر".

ومعنى ذلك أن الأصل في التعبد الطوعي هو إطغاء الطاغية، أي نقل التعبد إليه دون سواه، بما يعني نقل التعبد من مجاله الروحي الأصلي الذي هو عالم الغيب إلى المجال الذي هو عالم الشهادة ونقله من متعلقه الأصلي، وهو الله إلى متعلق نفسي وهو الطاغوت أو الطاغية.

فإطغاء الطاغية يورث المتعبد الطمع في التسيد؛ الطمع بما هو اشتهاة نفسي منحط، يسعى من خلاله المريد/ أو المتعبد الطوعي إلى تحصيل خلق زميم في طلب ما هو أذم، بل طلب ما بلغ نهاية الذم، بما أن الإطغاء يبقي المتعبد الطوعي مستعبداً على أسوأ وجه ممكن، يزداد عبودية على عبودية.

ويخفي الطاغية تسيدته على المتعبد الطوعي تحت اسم (احترام القانون)، مبرراً دحره للفطرة الروحية، من أجل (النسبة النفسية)، بما يتخللها من آفات أخلاقية مثل: "حب الظهور"، "وحب الشهرة"، "وحب الجاه"، "وحب الثناء"، "والنفاق"، "والكذب"، "والحسد"، "والحقد" و"الوقاحة"، "والإغواء"، منفصلاً عن كل الأصول الأخلاقية، مبرراً ذلك بالواقعية السياسية، كما رسخها نيقولا ميكافيل في كتابه (الأمير).

لذلك، أصبح العمل السياسي في معادلة الطاغية/الزعيم و الطاغية/المريد مجالاً للتصرفات المعلومة، قائماً على التسلط، تسلط الطاغية على المريد، وتسلط المريد على الناس الآخرين (كما شرح ذلك عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد).

وعليه، تتحدد وظائف المريد السياسي، وفق هذا التصور، في ترسيخ شهرة الطاغية/الزعيم، ونشر صيته في كل البلاد، وتحديث الناس عن فضائله في كل مكان، والتصدي لكل من يمس الطاغية، أو يشير إليه بنقذ.

فترى المريد يتوسل لذلك بكل الوسائل العامة (الإعلام) أو الخاصة، عبر التدوينات/الوشايات والعلاقات التنظيمية، القائمة على الصحبة والولاء والمصلحة والرفقة السيكولوجية، فيدوس المريد، كما داس الطاغية/الزعيم، كل الأخلاق التي تورثها الفطرة من تجرد من الأغراض وصدق في الأقوال، ولا يهتم المريد إلا بما يزكي الطاغية ويحصن هيئته، ويحرز له أكبر عدد من الأصوات، ويدحر كل منتقديه ويهينهم أمام الملاء.

لذلك، تصبح اللغة العنيفة والوقاحة، بالتعرض للأشخاص ولأعراض من يكشف هذه المعادلة النفسية الاجتماعية بين الطاغية/الزعيم وبين المريد/المؤمن الصادق بطاغيته، دفاعاً شرعياً عند المريد، ويصبح التصارع والتناز والاتهام، قواعد متبعة "لإحراز الأصوات والانتصار على الخصوم" مع علم الطاغية والمريد جميعاً، أنه لا يستطيع الوفاء بنذره على الوجه الذي ينبغي، على افتراض أن الطاغية نذر نفسه لخدمة الصالح العام والدفاع عن القضايا العادلة والمشروعة.

فالنسبة النفسية تتغشى الطاغية ويزكي هذا التغشي المرید، بإسناده كل الأمور له (أي للطاغية) متلذذا بنسبة كل الأفعال له، وكل مكتسبات التاريخ له.

كما تؤسس علاقة (الطاغية والمرید) لظاهرة سياسية وأخلاقية ودينية مرضية هي "التملق"؛ تملق الطاغية من المرید، وتملق الطاغية للمواطن، وتملق المریدين بعضهم بعضاً، بكل ما يعنيه التملق من سلوك نفسي وضعيع، يظهر المتملق له/ الطاغية بمظهر المغرور المفتون بالثناء عليه، تملق يبحث له المریدون على شرعية في (التقرب)، ويعللونه بخدمة المواطن، وحماية القيادة، أو بالأحرى عبادة القيادة.

هذا ما حوّل الفعل السياسي إلى مجال لتصارع الأهواء والشهوات والقوى والمصالح، فتحوّلت كل القيم والمبادئ الإنسانية العليا التي يدعي الطاغية/القائد أنه يدافع عنها، بفعل سلوك المرید ونفاقه، إلى نقيضها؛ أي: "الطمع في السلطة" و"ابتغاء المصلحة الخاصة" و"شهوة الغرور" و"حب الذات" وبناء نسق من الوصولية والانتهازية معقد ومقنع، يظهر ويختفي، لكنه حاضر باستمرار.

ويذهب طه عبد الرحمن إلى أن عادة الفاعل السياسي أن يسعى إلى الظهور بأضدادها، بدءاً وتذكيراً، دفعا لكل الشبهات المحتملة، فيدعي في العلانية أن بواعثه على هذه الخدمة تعلو ولا يعلى عليها ما دام قدره هو مصارعة ألد المنافسين؛ كأن تكون هذه البواعث في (إقامة العدل) و(جهاد الظلم) و(إشاعة الحرية) و(محو العبودية) و(تحقيق التنمية)...؛ كل ذلك لكي يضفي الصبغة الشرعية والشعبية على اختيارات وتصرفات تبعث عليها في الحقيقة، دوافع مشبوهة، ولو أنها تبدو خادمة للشأن العام (روح الدين، ص 104).

فالفاعل السياسي، أي: الطاغية/القائد، وفق هذه الرؤية، يملك القدرة النفسية على الازدواج السياسي بناء على قاعدة (لا حرج في ارتكاب المخالفات ما لم يكن لأحد سبيل إلى اكتشافها)؛ فتتحول الممارسة السياسية، وفق هذا المنظور الطهائي إلى مجرد (تدبير للسلم) في العلانية، و(تحضير حرب) في السر؛ أو كما قال كلوزيفتس Carl von Clausewitz : الحرب هي مواصلة السياسة بطرق أخرى، فتكون السياسة هي إدارة النزاع، وما النزاع إلا حرب بالكلام.

إن المرید أو المتعبد الطوعي، هو الأداة الأساسية في ترسيخ تسيد ينم عن غريزة دفينية في النفس، غريزة الاستتباع والتملق، تمتد ذاكرتها التاريخية إلى الذين استخفهم حاكمهم فأطاعوه، وأصبح يريهم ما يرى، وهم يطغون على الناس ويقهرونهم بأفكار زعيمهم ورؤيته، ويكرهونهم عليها، مما تنكره الفطرة ويستنكره العقل.

وعليه، سيبقى العنف في السياسة وفي الفكر، باللغة وبالسلح، ما دام بيننا مریدون يعبدون قاداتهم بطواعية ويخدمون في يؤس (بتعبير لابويسبي، ص12)، وبمحض اختيارهم.

العصر

المصادر: